اللغة فكر وثقافة وتكوين حضاري

الأستاذ الدكتور زياد الزعبي
جامعة اليرموك
المملكة الأردنية الهاشمية

الثلاثاء 6 محرم 1434هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2012م

حين نتحدث عن اللغة العربية والتكوين الحضاري فإننا لا نتحدث عن لغة إقليمية محصورة في أطر زمانية ومكانية محددة، بل عن لغة ذات أبعاد كونية تضرب جذورها عميقا في زمان ممتد لم يعان الانقطاع، لغة تمتد على مساحات شاسعة من قارات العالم القديم تاركة آثارها العميقة في مسيرة الحضارات الإنسانية الكبرى جميعها، وهي إلى هذا لم تنحصر في إطار لغة قومية، بل أصبحت، في صور متعددة، لغة حضارات أمم انصهرت في بوتقة العقيدة الإسلامية.

إن هذه السمات تجعل من العربية لغة تمتلك ميزات متعددة خاصة بها تفردها عن غيرها من اللغات الأخرى، وهذا التوصيف ليس سعيا إلى تقييم إعلائي عاطفي، بل سعي إلى وعي بأبعادها وتأثيراتها، والمراحل التي عبرتها في تاريخها الممتد منذ ما يزيد على خمسة عشر قرنا.

إن معاينة العربية بوصفها فكرا وثقافة وتكوينا حضاريا يدفع إلى قراءتها في سياقاتها وامتداداتها ومراحلها المتعددة:

- مرحلة تشكلها لغة عليا معبرة عن العرب وحياتهم وثقافتهم في الجزيرة العربية وما يصاقبها من الأماكن، وهو ما يمثله أدب العصر الجاهلي وبخاصة الشعر.

- ومرحلة انتقالها من لغة شعب وإقليم إلى لغة كونية حين غدت لغة سماوية، لغة القرآن الكريم، وبالتالي الحامل لعقيدة كونية أعلنت عن نفسها عقيدة للبشر عامة، وهذا ما جعل العربية الحاملة هذه العقيدة، في أقل من قرن، لغة عالمية كبرى تشكلت في أطرها وسياقاتها أسس الحضارة الكونية العظمى التي سادت العالم قرونا عديدة، وامتدت على مساحات شاسعة من قارات العالم القديم،

وغدت لغة الحضارة الإنسانية التي انحلت في بوتقتها لغات وحضارات متعددة، وشكلت بالتالي حلقة محورية في الحلقات الحضارية الإنسانية الكبرى.

- ومرحلة الركود والتراجع أمام حضارات جديدة بدأت فرض سطوتها وسيطرتها منذ النهضة الأوروبية وحتى العصر الحديث، مع ملاحظة مراحل وتحولات جزئية داخل هذه المرحلة الكبرى التي شهدت صعودا متناميا لحضارات ولغات، وتراجعا وانكماشا لحضارات ولغات أخرى.

- والمرحلة الراهنة التي تمثل حالة متعددة المظاهر والأبعاد، حالة تشهد في جوانب منها تطورا وازدهارا، وتشهد في جوانب أخرى ارتدادا وانتكاسا، وذلك في إطار ظاهرة كونية هائلة هي "العولمة" بأبعادها الاقتصادية والثقافية المستندة إلى ثورة الاتصالات التي محت كل الحدود، وهي ظاهرة لا يقتصر تأثيرها على لغة أو ثقافة معينة في العالم المعاصر، بل تصيب على نحو شمولي ثقافات شعوب العالم ولغاتها المتعددة، وإن بدرجات متفاوتة من التأثيرات السطحية والعميقة.

سيقرأ هذا البحث – في إطار المعطيات السابقة –حال العربية والظواهر الكبرى في مساراتها التاريخية، وفي بناها الفكرية والثقافية الراهنة التي تمثل حالا من السعي إلى الحفاظ على حضورها في المشهد العالمي، وليس في أطرها القومية حسب، وإلى مواجهة موجة المد الضخمة التي تمثل تحديا حقيقيا للغة العربية ودورها في البنى الفكرية والحضارية كافة، مما يجعل من الممكن تشكيل تصور عن حالاتها ومآلاتها.

العربية لغة تمثل ظاهرة فريدة في تاريخ اللغات العالمية جميعها، فهي ربما تكون الوحيدة التي حافظت على حضور متصل فعال منذ ما يزيد على ألف وخمسمائة عام دون انقطاع، ودون تغيرات عميقة تذكر في مبانيها وتراكيبها وقواعدها. فما زال العربي يقرأ نماذجها العليا الأقدم ممثلة بالشعر الجاهلي، الشعر

الذي كرس نموذجا للشعر العظيم واللغة العربية العليا، وللتعبير عن حال العرب وفكرهم وحضارتهم، ما زال العربي يقرأ هذا الشعر دون أن يجد صعوبة حقيقية في فهمه، بل إن من الطريف أن هذا الشعر ظل الأكثر حضورا وتأثيرا في الإطار الثقافي والتعليمي العربي .

وهذه ظاهرة لا مثيل لها في معظم اللغات العالمية الأخرى، لأنها شهدت تغيرات كبيرة في بنيتها ومفرداتها وكتابتها وقواعدها، مما جعل قراءة آدابها التي كتبت قبل بضع مئات من السنين غير ممكنة لمعظم أهلها اليوم إلا بعد ترجمتها إلى " اللغة الحديثة". وأذكر هنا مثلا أن الأدب الألماني المكتوب في القرن الثالث عشر مثلا لم يعد بإمكان الجمهور الألماني قراءته أو فهمه، وهذا ما دفع دارسي هذا الأدب إلى ترجمته إلى الألمانية الحديثة.

إن ظاهرة الامتداد التاريخي غير المنقطع للعربية يعود إلى نقطة التحول الكبرى في تاريخ العرب، التي يمثلها الدين الإسلامي وكتابه المقدس القرآن الكريم الذي غير العالم، وحفظ العربية لغة مقدسة، ولغة حضارة وفكر إنساني.

لقد كان الإسلام نقطة انطلاق للعربية من لغة قومية محصورة في إطار قومي جغرافي محدود إلى لغة عالمية، لغة تجاوزت الأطر الجغرافية والقومية لتغدو لغة حضارة كونية فرضت سيطرتها طيلة قرون عديدة وامتدت على مساحة قارات العالم القديم، تاركة آثارها العميقة على كل الشعوب التي دخلت في الإسلام وتعربت، والتي احتفظت بلغاتها الأصلية، كما هي الحال في اللغة الفارسية والتركية والأردية، ولكنها وقع ت تحت تأثير العربية لغة القرآن على نحو كبير، تأثير ظهر في كتابة هذه اللغات بالحروف العربية، وفي تبني عدد كبير من مفرداتها وصورها ومصطلحاتها.

العربية لغة حضارة كونية

لقد مثلت الثقافة العربية في عصر الترجمة، وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ظاهرة استثنائية في التاريخ؛ فقد استطاعت من خلال حركة ترجمة علمية امتدت قروناً أن تكون بنية ثقافية كونية كبرى، أسهمت في نسيجها ثقافات ولغات وشعوب متعددة متباينة، ولقد كانت هذه الثقافة خلاصة الإرث الثقافي الإنساني السابق، مما جعلها ذات طابع كوني " فالحضارة الإسلامية بامتدادها في اتساع العالم القديم من نهر " الجانغ " Ganges إلى المحيط الأطلسي، وحدت داخل مجالها التقاليد الثقافية للهند، وبلاد فارس، وما بين النهرين، ومصر، وأجزاء كبيرة من بيزنطة، ومن الميراث الإغريقي–الروم اني الذي طورته الإمبراطورية الرومانية في غرب البحر المتوسط. وأثبت العرب أنهم أساتذة في نسج كل هذه الخيوط المختلفة في نسيج ثقافي جديد. وتماسكت الحضارة الجديدة بواسطة لغتهم المشتركة، وإيمانهم المشترك، وطريقة حياتهم المشتركة، لكنها كانت عامة بما يكفي، في ذروتها، لتحمل التبادل الحر لكل هذه التنوعات الأصلية". **(جولدشتاين: المقدمات 114)**. ولعل هذا ما دفع إلى وصف هذه الثقافة بأنها " حركة إنسانية عربية، Arabische Humanismus. (Kunitzsch: zur Problematik 25-26). وقد ذهب غوتاس إلى التعبير عن هذه الحركة إلى القول:" إن حركة الترجمة اليونانية– العربية في بغداد تؤلف مرحلة حاسمة في مجرى تاريخ البشرية، مهما كان سبيل تقييمها. إنها تتماهى بأهميتها،وإنني أزعم أنها تعادل في أهميتها أثينا بركليس أو النهضة الإيطالية أو الثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهي حرية أن يعترف بها وأن تحتل مكانها في ضميرنا التاريخي". **(غوتاس، 39)**

في تلك المرحلة، مرحلة ازدهار الثقافة العربية، أصبحت اللغة العربية قادرة على استيعاب النهضة العلمية بكل حقولها ومصطلحاتها المنقولة إليها من اللغات الأخرى، وقد تيسر لها ذلك اعتماداً على مجموعات من العلماء ثنائيي أو متعددي اللغات من الشعوب الداخلة تحت حكم الدولة العربية الإسلامية، ويمكن أن يشار هنا إلى مساهمة السريان والفرس في حركة الترجمة. **(الجميلي: حركة الترجمة)**

ويستطيع المرء الذي يعود لقراءة بعض الكتب العربية أو المترجمة إلى العربية أن يقف على صور التطور الهائل في اللغة العربية: في تراكيبها ، ومفرداتها ، ومصطلحاتها ، بل لقد تشكلت في سياق عمليات الترجمة والمثاقفة "عربية" صدم ت تيار المحافظين، وهو ما يتبدى في الموقف الطريف لذلك الأعرابي الذي استمع إلى كلام أهل النحو في مجلس الأخفش، فشده، " وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ قال: **أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا**". **(التوحيدي: الإمتاع 139/2)**

إن مثل هذا الموقف الطريف ليعبر عن ظاهرة ثقافية– لغوية بدأت تظهر على نطاق واسع في المجتمع والثقافة واللغة العربية في العصر العباسي، ظاهرة تؤشر على مرحلة تغير جذرية في بينة الثقافة واللغة العربية التي كانت "خالصة" كما اعتقد المدافعون عن صفائها، وهم طبقة الرواة اللغويين الذين جهدوا في العناية بالماضي، وأغمضوا أعينهم عن تيار التغير والمثاقفة الجارف الذي تجلى في المدينة العباسية: وجوهاً، وألسنة، وعادات، وألواناً، ومصطلحات، لا يعرفون أو لا يريدون أن يعرفوا السبيل إلى "معرفتها" أو محاورتها. فقد أصبح بعضهم عاجزا عن إدراك التحول العظيم من الإطار الثقافي المحصور في النسق "الأصيل" وفي المجال الجغرافي العرقي اللغوي شبه المغلق، إلى بنية ثقافية كونية مركبة من

أعراق ولغات وثقافات انصهرت في إطار لغوي واحد وبنية ثقافية جديدة تجاوز حدود العرق والجغرافيا واللغة كذلك.

وفي المقابل كان ثمة تيار كبير يتشكل في سياق حركة المثاقفة، تيار من الأدباء، والفلاسفة، واللغويين، والعلماء في شتى حقول المعرفة . وكان هؤلاء يدركون الواقع الجديد للمجتمع الحضاري الجديد في المدينة العباسية المعقدة في بنيتها العرقية، واللغوية، والفكرية، ويشاركون في تكوين مسارات جديدة للمعرفة العلمية في حقولها المختلفة، وتبينوا منذ مرحلة مبكرة أن اللغة هي حامل الفكر والثقافة، وأنها تستطيع أن تفيد من اللغات والثقافات الأخرى دون إحساس بالخوف أو الخطر. **(غوتاس: الفكر اليوناني)**

وأصبحت اللغة العربية لغة حضارة وفكر ساد العالم، وغدت لغة العلوم في ذلك العصر، واستوعبت اللغات الأخرى وطوعتها لأبنيتها وصيغها، واستطاعت أن تأخذ منها دون أن يكون هناك شعور " بالخطر على العربية"، لأن الثقافة القوية المسيطرة لا تشعر بالخوف من الآخر، بل كان الآخرون هم الذي يشكون ويشعرون بالخوف من الثقافة واللغة العربية، ولعل استحضار شكوى الإسبان من سيطرة العربية توضح ما نشير إليه. وينبغي أن نذكر هنا أن الآثار العربية في اللغات الأوروبية ما زالت ماثلة فيها حتى الآن، وإن بصورة تبدو باهتة بسبب الفاصل التاريخي بين المرحلتين: مرحلة التأثير، ومرحلة التراجع والانكفاء الفكري والحضاري.

اللغة والحضارة والترجمة: التحدي والاستجابة

لقد تنبه الجاحظ في مرحلة مبكرة لمسألة استجابة اللغة للمعطيات الفكرية واللغوية الجديدة التي تمثلت في لقاء العربية باللغات والثقافات الأخرى وعلومها ،

فقد وعى معنى المصطلح العلمي، فقال إن لكل علم مصطلحاته، فلعلم الكلام والمتكلمين مصطلحاتهم، وللنحاة مصطلحاتهم، وللعروضيين مصطلحاتهم، التي اجتلبوها للتفاهم، وجعلوها وسيلتهم للإفهام، يقول:

"ولأن كبار المتكلمين، ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني (معاني المتكلمين)، وهم اشتقوا لها من لسان العرب تلك الأسماء، **وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع؛ ولذلك قالوا: العرض، والجوهر، وأيس، وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذية، والهُوية، والماهية، وأشباه ذلك.**

وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل، والبسيط... وكما سمى النحويون، فذكروا الحال والظرف، وما أشبه ذلك، لأنهم لو لم يضعوا **هذه العلامات** لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم".**(الجاحظ: البيان 88/1)**

هذا النص المبكر للجاحظ يؤشر على غير قضية من القضايا التي ترتبط باللغة وبالمصطلح العلمي، منها ما يتعلق بأسس وضعه، وأسبابه، ومنها ما يتعلق بخصوصيته وتميزه وانتمائه إلى حقل معرفي معين. ومنها ما يشير بوضوح إلى **"وضع مصطلحات" بلغة العرب استناداً إلى مصطلحات وافدة من لغات أخرى، وهذا أمرٌ يجعل الصورة الرّاهنة المتعلقة بصياغة المصطلحات الوافدة وإيجاد مقابلات عربية لها الآن تلتقي بمثيلتها التاريخية على الرغم من التفاوت في الظرف والبيئة والطرائق.**

وإذا كان الجاحظ يقدم توصيفاً للغة الاصطلاحية الخاصة بكل علم من العلوم، وإلى أن وضع هذه اللغة انبثق من عملية اللقاء بين العربية ولغات الأمم الأخرى وعلومها، وتشكلت من خلال عملية الترجمة الذي اقتضت إيجاد مقابلات لغوية عربية لمصطلحات وافدة– **فإنه عبر في الوقت نفسه عن ظاهرة ثقافية لغوية كبيرة في عصره تتمثل في نشوء لغات اصطلاحية خاصة بالحقول العلمية والمعرفية المتعددة. وقد كانت هذه الظاهرة إحدى مسائل الخلاف في عصره، لغرابتها على المستويين اللغوي والدلالي في آن.**

وكتب الجاحظ الكثيرة تقدم نموذجا فائقا للعربية، اللغة والثقافة التي انحلت فيها اللغات والثقافات الأخرى على نحو مثير للدهشة في تلك المرحلة المبكرة، ففيها تجتمع العناصر الثقافية اليونانية، والفارسية، والهندية، وتحضر فيها اللغات الأخرى بكثير من مفرداتها، وببعض صيغها . وهذه ظاهرة لم تدرس – في حدود علمي – دراسة ثقافية اجتماعية لغوية تبين عن كيفيات تشكلها وتعربها.
(الجاحظ: البيان، الزعبي: المثاقفة 20–21)

لقد ولدت حركة المثاقفة والترجمة في العصر العباسي لغة داخل اللغة، ووجد الكثيرون من الذين لم يتصلوا "بالعلوم غير العربية" أنفسهم في الموقف نفسه الذي عايشه الأعرابي في مجلس الأخفش. وكان شيوع هذه اللغة الجديدة في حقول معرفية عديدة مرتبطاً بعملية المثاقفة الجارية في إطار المجتمع المتعدد الأعراق والثقافات، وبتأثير حركة الترجمة التي كانت تتم على نطاق واسع آنذاك ، وهي حركة تركت آثارا واسعة وعميقة في اللغة العربية، وذلك بفعل عمليات الإثراء المتبادل بين اللغات التي تتفاعل من خلال عمليات الترجمة أو اللقاء المباشر بين متكليمها.

ولعل قراءة "عربية" الفلاسفة المسلمين : الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وعربية الكتاب والمفكرين والعلماء في القرن الرابع وما بعده تظهر التطور الهائل للغة العربية ودورها الحاسم في تشكيل بنية حضارية كونية تركت آثارها على مسيرة الحضارة الإنسانية، وغدت فيما بعد لغة مصدر أولى للحضارة الأوربية. **(جولدشتاين: المقدمات 112)**

اللغة والفكر الفلسفي والترجمة:

إن قراءة في كتاب "الحروف" للفارابي، لتضعنا أمام لغة جديدة، لغة فلسفية تتمثل الفكر الفلسفي وتطوع العربية للتعبير عنه مستندة إلى ما يمكن وصفه بإيجاد لغة داخل اللغة، لغة تتشكل استنادا إلى فكر فلسفي يستدعي لغة خاصة به قادرة على حمله في صيغ اصطلاحية ومحمولات دلالية خاصة تشكلت من خلال ترجمته من لغته الأصل إلى العربية، وهذه عملية تأملها الفاراب ي بوعي عميق مسند بمعرفة لغوية دفعته إلى إدراك الإشكاليات التي تترتب على عملية الترجمة، وبخاصة ترجمة المصطلحات من لغة إلى لغة، وهي إشكاليات تصيب بنية اللغة المستقبلة ونظامها، وتولد في داخلها لغة اصطلاحية غريبة عليها في مبناها ومعناها. وقد مكنته معرفته اللغوية الواسعة من إجراء مقارنة بين اللغات من حيث أنظمتها، وكيفية توليدها مصطلحات جديدة قياساً على مصطلحات وافدة من لغة أخرى وثقافة أخرى. فهو مثلاً يتحدث عن وجود الأفعال المساعدة في اللغة اليونانية والفارسية، ويشير أن لا مقابل لها في العربية، يقول:

"**وليس في العربية منذ أول وضعها لفظة تقوم مقام "هست" في الفارسية، ولا مقام "استين" في اليونانية، ولا مقام نظائر هاتين اللفظين في سائر الألسنة. وهذه يحتاج لها ضرورة في العلوم النظرية، وفي صناعة المنطق. فلما انتقلت**

الفلسفة إلى العرب واحتاجت الفلاسفة الذين يتكلمون بالعربية... ولم يجدوا في لغة العرب منذ أول ما وضعت لفظة ينقلون بها الأمكنة التي تستعمل فيها "استين" في اليونانية، و " هست " بالفارسية .... فبعضهم رأى أن يستعمل لفظة هو مكان "هست"... و"استين"، مثل قولهم هو يفعل،... "زيد هو عادل" وأشباه ذلك... ورأى آخرون أن يستعملوا مكان تلك الألفاظ بدل "الهو" لفظة الموجود، وهو لفظة مشتقة ولها تصاريف...". (الفارابي الحروف 112-113).

ويجاوز الفارابي الحديث عن هذه القضية التي ما زالت حاضرة حتى يومنا في الترجمة، ليصل إلى الحديث عن استعمال الألفاظ استعمالاً **جمهورياً** ، أو استعمالاً **اصطلاحيا** ً فلسفياً . ويقدم أمثلة على ذلك، منها معنى أو معاني "الجوهر" عند الجمهور فبعضهم يقول: "زيد جيد الجوهر"، ويعنون به جيد الجنس والآباء وجيد الأمهات... وفلان جيد الجوهر يعنون به جيد الفطرة التي بها يفعل الأفعال الخلقية والصناعية...

وأما في الفلسفة فإن الجوهر يقال على المشار إليه الذي هو لا في موضوع أصلاً... فإنهم (الفلاسفة) يعنون بالجوهر ههنا الأشياء التي بالتئام بعضها إلى بعض تحصل ذات الشيء...". **(الفارابي: الحروف 98-101)**

إن معالجات الفارابي الفكر الفلسفي وبحثه عن اللغة القادرة على التعبير عنه يمثل نموذجاً مبكراً ومتقدماً يقف على قضية استجابة اللغة للتعبير عن فكر جديد عليها بلغته ابتداء، وهذا ما دفعه إلى بحث لغوي – فلسفي ، رأى على ضوئه الفوارق بين الأنظمة اللغوية، وكيفية إيجاد حلول لغوية داخل نظام اللغة العربية نفسها للمشاكل التي تولدها عملية الترجمة على المستوى اللغوي الخالص، والمستوى الاصطلاحي للمفردات التي يريد أن تكون مقابلاً للمصطلحات الوافدة من اللغات الأخرى. وقد قدم الفارابي تصوراً محدداً لكيفية "إنتاج مصطلح" لغوي

في إطار اللغة المستقبلة "العربية" ليقابل مصطلحاً منقولاً إليها من لغة أخرى، فهو يرى:

١ -**إما أن تخترع الأمة المستقبلة ألفاظاً من حروفها.**

٢ -**وإما أن يشرك بينها وبين معان أخرى -كيف اتفقت- في العبارة.**

٣ -**وإما أن يعبر بها بألفاظ الأمة الأولى بعد أن يغير تغييراً يسهل على الأمة الثانية النطق بها. ويكون هذا المعنى غريباً جداً عند الأمة الثانية.**

والفلسفة الموجودة اليوم عند العرب منقولة إليهم من اليونانيين وقد تحرى الذي نقلها في تسمية المعاني التي فيها أن يسلك الطرق التي ذكرنا ". **(الفارابي: الحروف 158-159)**

ومن الواضح هنا أن الفارابي يطرح تصوراً لعلمية النقل تتقاطع على نحو كبير مع التصورات التي نتداولها اليوم في إطار بحث مشكلة التعريب. **(عبد العزيز: المصطلح)**

وفي الوقت نفسه نجد ابن وهب الكاتب يقف على هذه القضية متحدثا عن المصطلح الوافد وكيفية التعامل معه. يقول في باب الاختراع:

"وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه فمنه ما سموه باسم من عندهم، كتسميتهم الباب في المساحة بابا، والجريب جريبا، والعشير عشيرا. ومنه ما أعربته، وكان أصل اسمه **أعجميا كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم، والشطرنج المأخوذ من لسان الفرس. والسجل المأخوذ من لسان الفرس أيضاً.**

وكل من استخرج علما، أو استنبط شيئا وأراد أن يضع له اسما من عنده، ويواطىء عليه من يخرجه إليه، فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النحويون : اسم الحال، والزمان، والمصدر ... واخترع الخليل العروض فسمى بعض ذلك الطويل، وبعضه المديد... وقد ذكر ذلك أرسطوطاليس وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به، أو يسميه بما شاء من الأسماء. وهذا الباب مما يشترك فيه العرب وغيرهم، وليس مما ينفردون به".(ابن وهب نقد النثر)

إن هذه التصورات والحوارا ت التي تفرضها عملية اللقاء باللغات الأخرى لتمثل نموذجا لكيفية استجابة اللغة للتحديات التي تواجهها حين تكون لغة مستقبلة أو لغة هدفا، وهي تبين عن رؤية اللغة لذاتها وإدراكها قدراتها وقابلياتها التي تمكنها من استيعاب العلوم والمعارف والأفكار في اللغات الأخرى بما يتوافر لها من مقومات المرونة والثراء، وبما امتلكته من ثقة وجرأة على التعامل مع لغات الأمم الأخرى وعلومها وثقافاتها، وبما قامت به من جهود كبرى في سبيل تعريبها، أو حلها في العربية، تمثلت بحركة الترجمة الكبرى التي استمرت قرونا ونجم عنها بنية حضارية كونية كبرى لغتها العربية التي فرضت على الحضارات التالية لها الانطلاق منها، وهو ما يظهر في نشأة الحضارة الأوروبية.

العربية مصدرا: أوربا والحضارة العربية

لقد غدت العربية لغة العلم والحضارة والفكر، وفرضت على كل من يريد أن يتعلم في قارات العالم القديم أن يتعلمها، وأصبحت لغة مصدرا تترجم منها العلوم والمعارف إلى لغات العالم الجديد الذي بدأ يتلمس خطواته نحو تكوين الحلقة الحضارية الجديدة في تاريخ البشرية. واحتاجت أوروبا إلى ما يزيد على قرنين من الزمان لنقل العلوم العربية وتمثلها، وذلك من خلال حركة ترجمة واسعة تقابل ما

قام به العرب سابقا. يقول توماس جولدشتاين في الفصل الذي عنونه بـ " هبة الإسلام" في كتابه " **المقدمات التاريخية للعلم الحديث**" :

"بدأت خطى الدارسين المسيحيين ترن في قاعات المكتبات الإسبانية ومدارس الكاتدرائيا ت التي كان الكثير منها أماكن علم إسلامية سابقة.بحماس متعصب انغمست حفنة من الدارسين في دراسة العربية بمساعدة اليهود الأسبان الذين كانوا يتقنون لغة الإسلام وعلومه في الأغلب. وفي برشلونة وطرسونة وشقوبية ... وفي طليطلة ذاتها في المقام الأول شرعوا في ترجمة الكتابات العلمية التي خلفها العرب وراءهم على الأرفف . وخلال أقل قليلا من جيل ترجم لب العلم الإسلامي إلى اللاتينية اللغة المشتركة للغرب المتعلم وخلال مئة عام كان الغرب من الناحية الجوهرية قد استوعب المعرفة العلمية للإسلام وخلال أقل من مئة عام أخرى أثناء القرن الرابع عشر كان الغرب قد تجاوز الإسلام بصورة حاسمة في سيادته الفكرية للطبيعة مندفعا إلى الأمام إلى أسرار العلم، بينما يشكل الميراث الإسلامي الأساس الوطيد". **(جولدشتاين 112)**

وقد وقف الأوروبيون طويلا أمام الإرث الحضاري العربي الإسلامي، وعملوا على ترجمته في سياق حركة طويلة مرت بمراحل متعددة، وركزت على حقول معرفية معينة تمثلت ابتداء بالمعارف العلمية ثم جاوزتها إلى الحقول المعرفية الأخرى، ومنها الحقل الأدبي الذي ترك آثارا كبيرة على الآداب الأوروبية، وهو ما يستطيع المرء تبينه من خلال الكم الضخم من الدراسات الأوروبية في هذا الحقل. وكثير من هذه الدراسات دراسات حديثة. وهنا لا يدور الحديث عما قام به المستشرقون، ولكن عن الدراسات التي يقوم المختصون بالدراسات الأدبية في أوروبا. ويمكن أن أشير هنا إلى مجموعة كبيرة من الدراسات التي تقرأ تأثير الغزل العربي في الآداب الأوروبية،

جمعت في مجلدين كبيرين وصدرت عام 1995 تحت عنوان (Ghazal as World Literature).

إن الأمر المستفز في هذا السياق أن الدراسات العربية تكاد تكون غائبة عن حضور الأدب العربي في الآداب الغربية، كما أن معرفتنا بالدراسات الأوروبية في هذا الحقل محدودة جدا، وهذا أمر باعث على الاستغراب، إذ إننا نغيب عن حضور ثقافتنا وصورتها الإيجابية لدى الأخر، ونكتفي في كثير من الأحيان بالإنشاء المدحي أو القدحي لعلاقتنا به. وأعتقد أن المؤسسات الأكاديمية والثقافية في العالم العربي مسؤولة عن هذا الغياب لأنها تسير غالبا في مسارات مطروقة مكرورة.

اللغة والسبات الحضاري

حين تدخل الأمة أي أمة مرحلة السبات، الضعف والتراجع، والتوقف عن الفعل والإنتاج وتدخل قوقعتها الصلبة تدخل بكل عناصرها في مرحلة سميت في أوروبا بعصور الظلام أو القرون الوسطى، وسميت في العالم العربي الإسلامي بعصور الانحطاط، وليست التسميات هنا موضوعا للجدل، بل إطار لأنماط حياة الأمم في مراحل تاريخية من حياتها أصابها فيها الضعف والتراجع والانكفاء والغياب عن الحضور الفعال تفكيرا وعملا وإنتاجا، وهي مراحل عايشتها كل الحضارات الإنسانية الكبرى بدءا من الحضارة اليونانية. في مثل هذه الحال تدخل لغة الأمة معها في سباتها، وتغدو مجرد وسيلة تواصل نمطية تستهلك نفسها في التكرار والقوالب اللغوية النمطية غير القادرة على الإفلات من قواقعها. هذا ما عانته العربية قرونا قبل أن تصل إلى مرحلة نهضتها الحديثة إذا جاز لنا أن نطلق عليها هذا الوصف. ولعل الإشارة هنا إلى مرحلة الإحياء المرحلة التي عاد فيها العرب إلى تراثهم في عصور ازدهاره للبدء بمرحلة الإحياء التي كان من بين

أسبابها المحركة القلقة اللقاء العاصف بالغرب وثقافاته ولغاته. ولقد كان من التوفيق العودة إلى التراث والابتعاد عن الوقوع في أسر الغرب المتفوق **(السعافين: مدرسة الإحياء والتراث)**.

منذ تلك المرحلة عايشت الأمة واللغة حالات متباينة من الصحة والانتكاس، ودخلت مسارات مختلفة، ولم تشق طريقها في اتجاه واحد يقود إلى خروجها من المراوحة بين محاولة النهوض والتراجع أو السكون، وهذه حال فرضتها معطيات التفوق الغربي وسيادته الاستعمارية من جانب وعدم قدرة الأمة على مواجهتها من جانب آخر. وظلت الأمة واللغة تعاني من حالات الامتداد والارتداد غير المتزنة حتى الدخول في مرحلة ثقافية كونية تمثلها " العولمة" بكل أبعادها وصورها الاقتصادية والثقافية.

لكن ما يجب الالتفات إليه أن العربية واستنادا إلى الإرث الحضاري الضخم والعمق التاريخي وقبل ذلك الفكر العقدي الديني استطاعت أن تخرج من حالة الجمود وظهرت تجليات حيويتها وقدرتها في موجات من المد القومي تمثلت في إنتاج فكري وأدبي وفي مؤسسات علمية أعادت للثقافة واللغة العربية بعض بريقها، ولعل النظر إلى الجانب الحي منها يمكننا من رؤية ثقافة ولغة قد تعاني وتتراجع في حوارها مع اللغات والثقافات الأخرى، ولكنها تظل محتفظة بروحها وقدراتها على التجدد بما تملك من "قداسة" وقابلية مدهشة لاستيعاب العلوم والثقافات واللغات الأخرى، ونموذجها الفذ ما يزال ماثلا. ويمكن للمرء أن يتأمل العربية في مراحل تاريخية متتابعة ليدرك قدرتها وحيويتها، فمعاينة صورها في القرن التاسع عشر، ثم حالها في النصف الأول من القرن العشرين، وبعد ذلك في المرحلة الراهنة تكشف عن صعود وحيوية ومرونة وتجدد وإن داخلتها ظواهر اختلاط

وتهجين الناجمة عن تيار العولمة الجارف، وقبلها التيار الاستعماري الذي رسخ حالة من التهجين الثقافي اللغوي في بلاد المغرب العربي.

اللغة: الإنتاج والاستهلاك

منذ خمسة وعشرين عاما وأنا أتلقى بانتظام مجلة " letter" التي تصدرها المؤسسة الألمانية للتبادل العلمي باللغة الألمانية وتوزع في معظم بلاد العالم، سعيا إلى الحفاظ على صلات خريجي الجامعات الألمانية باللغة والثقافة الألمانية، لكن المفاجأة كانت كبيرة فقد صدر العددان الأخيران باللغتين الألمانية والانجليزية، أعني أن العدد الواحد تظهر فيه المقالات باللغتين، مما يعني أن الألمان الذين يعتبرون لغتهم سماوية لم يعودا قادرين على مواجهة تيار العولمة الجارف الذي تشق مجراه اللغة الانجليزية مسلحة بثورة الاتصالات، وسطوة القوة الأمريكية الاقتصادية والثقافية. فإذا كانت هذه حال أمة وثقافة متفوقة منتجة فما الذي يمكن أن تفعله أمم وثقافات متخلفة؟

هذه ظاهرة تلخص حال "العولمة والثقافة"، حال الإنتاج والاستهلاك وحال العالم في ظل ثورة الاتصالات التي تؤثر بعمق في حياة البشر وثقافاتهم ولغاتهم، فمن الواضح أن الناس في العالم يستعملون وسائل اتصال مشتركة ومواد غذائية واستهلاكية وأدوات ذات طابع كوني تسوق مع أسمائها، وهذا ما يؤدي على نحو متزايد إلى استعمال أسماء المنتجات بلغة المنتج، مما يعني شكلا من أشكال التلازم بين العولمة الاقتصادية والعولمة الثقافية واللغوية.

واللغة العربية اليوم تواجه ما تواجهه اللغات الأخرى من سطوة العولمة وهيمنتها، لكن ما يعمق مشكلتها هو ضعف الأمة الذي جعلها مستهلكة مستقبلة، تستقبل ما ينتجه الآخر من الأشياء وأسمائها، وهذه حال أدت، بسبب ضآلة الوعي بالذات أو غيابه، إلى هجنة لغوية ثقافية تعلن عن نفسها بفظاظة في مظاهر

الحياة اليومية وفي الخطاب اليومي المنطوق والمكتوب، وفي المؤسسات العلمية والثقافية والإعلامية، مما يعني أننا أمام حال لغوية معبرة عن بنية ثقافية اجتماعية يمكن وصفها بأنها مستسلمة، إذ لا نجد استجابة لتحديات العولمة الثقافية اللغوية إلا في أطر محدودة.

إن مقاومة تيار العولمة أمر غير مطروح، لكن الواجب يتمثل في الاستجابة لتحدياتها، وأهمها على الإطلاق ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية التي لا تنفصل عن اللغة، وهذا فعل لا يتم إلا بالوعي بالذات وإرثها الثقافي التاريخي، وحضورها الراهن. فإذا كانت الظواهر تفرز نقيضها، فإن العولمة قد أدت في أماكن متعددة من العالم إلى رد فعل مناقض يعلن عن نفسه في رفضها لأنها " الإسقاط غير المبرر للقيم الغربية على كل الثقافات العالمية الأخرى. والنزعة الكونية ... هي في الحقيقة حالة من الخاص الذي يتنكر في صورة الكوني" **(توملينسون: الثقافة والعولمة 94).**

وأبسط صور إدراك العولمة الثقافية ذات البعد الواحد الخاص يتجلى في اللغة ومحاولة جعلها لغة كونية. ولذا فإن الحفاظ على اللغة وجعلها وسيلة التواصل والتفكير والإنتاج يمثل واحدة من حالات الاستجابة على تحدي العولمة، وهي حال مرتبطة بالهوية القومية والدينية، وهذا ما يمكن، إن تم على نحو مؤسسي فعال، من تجاوز استبدا د العولمة في جانبها اللغوي. لكن ما يحدث في العالم العربي لا يجاوز رد فعل مشابه لدهشة الأعرابي وهو يستمع إلى لغة العلماء والفلاسفة، أي أننا نقوم برد فعل احتجاجي لا يستند إلى رؤية علمية منهجية تحدد أهدافها ووسائلها.

إن العربية اليوم تعاني ما تعانيه الأمة، ولكنها تملك على الرغم من كل ما أصابها ويصيبها من وهن ومن جناية أبنائها عليها عناصر قوة تمكنها من التجدد والانتشار، لكونها مرتكز العقيدة الإسلامية، ولغة حضارة كونية ما زالت تفرض

حضورها في العالم حتى يومنا هذا، ولغة تمتاز بمرونة وقابلية غير محدودة للتعبير عن الفكر والعلم والمعارف الإنسانية. ولو أتيح لها حركة ترجمة مبدعة شبيهة بمثيلتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين لكنا اليوم أمام نموذج متفوق للغة تعليم في الجامعات بدلا من استعمال لغة أو لغات أجنبية أو هجينة.

على الرغم مما تعانيه العربية في واقعها الراهن فإنها استطاعت في القرن العشرين أن تشهد تطورا مهما، فقد استطاعت أن تكون لغة العلم والمعرفة بكل حقولها، ولغة الإعلام، ولغة أدب له حضوره في المشهد الثقافي في العالم، ولذا فإن ما يصيب اللغات الحية في حقب تاريخية لا يمثل سوى حالة كمون، فهذه اللغات" ستبقى إلى الأبد على الرغم من التقلبات التاريخية السطحية التي قد تخفي ذلك، فعبقرية اللغة لا تتأثر.. ويوجد داخل أي شعب من الشعوب أفراد عددهم محدود ممن نَصفهم بالعباقرة.. وهم لا يتصرفون فقط وفق طرق محددة يمليها الإرث القومي الثقافي، بل يضيفون إلى هذا الإرث ليدفعوا به إلى الأمام أبعد من ذلك». كما يرى فون همبولت.

ويجب أن يشار هنا أيضا إلى أن العربية تشهد انتشارا في بلدان العالم الإسلامي وفي البلاد الغربية كذلك، انطلاقا من دوافع متباينة، وإن كانت في النهاية تؤشر على حضور العربية وحيويتها واستمرارها وتجددها، ولعل من حسنات ثورة الاتصالات أنها مكنت من انتشار العربية، ودفعت كثيرين في العالم إلى تعلمها.

لقد كانت العربية لغة حضارة كونية تأسست انطلاقا من العقيدة الإسلامية وكتابها الكريم الذي يمثل نموذجها الأعلى والذي حفظها حية متجددة، وهي إلى هذا لم تتحول إلى لغة لاهوتية، مثل بعض اللغات الأخرى، بل ظلت عبر القرون لغة الحياة والعلم والفكر الإنساني.

المصادر

1- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تح. أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت د.ت.

2- الجاحظ، أبو عمرو: البيان والتبيين، تح. عبد السلام هارون، بيروت 1990.

3- الجميلي، رشيد: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، بغداد 1986.

4- جولد شتاين، توماس: المقدمات التاريخية للعلم الحديث، من الإغريق القدماء إلى عصر النهضة، تر. أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 2003.

٥ -الزعبي، زياد: المثاقفة وتحولات المصطلح، دراسات في المصطلح النقدي عند العرب، عمان 2007.

٦ - عبد العزيز، محمد حسن: المصطلح العلمي العربي: المبادئ والآليات، مجلة فصول، ع 65، القاهرة 2005.

٧ -غوتاس، ديمتري: الفكر اليوناني والثقافة العربية، حركة الترجمة اليونانية – العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، القرن الثاني – الرابع الهجري/ القرن الثامن–القرن العاشر الميلادي). تر. نقولا زيادة، بيروت .2003

8- الفارابي، أبو نصر: كتاب الحروف، تح. محسن مهدي، بيروت .1970

9- ابن وهب الكاتب: نقد النثر، المنسوب خطأ لقدامة، تح. عبد الحميد العبادي، بيروت 1982.

10 - Kunitzsch, P.: Zur Problematik und Interpretation der arabischen Uebersetzung Antiker Texte, Oriens, vol. 25-26. Leiden 1976.

التعليقات والمناقشات

- د. يعقوب الحلو

رأى أن من أهم سبل النهوض باللغة العربية المناهج المدرسية وخاصة مناهج اللغة العربية، التي لا بد من إعادة النظر فيها بدءاً من رياض الأطفال ومروراً بالمدرسة وانتهاءً بالمرحلة الجامعية. ولا بد من استعراض الأمراض التي تصيب اللغة العربية في بلادنا؛ فهناك في المجتمع الأردني توجه لتعليم الأطفال اللغة الأجنبية إلى جانب العربية في الصفوف الأولى وهناك مدارس ومؤسسات – على مرأى ومسمع من وزارة التربية والتعليم– تطالب بإيجاد برامج لتدريس اللغة الأجنبية حتى في رياض الأطفال، وكلنا يدرك خطورة مثل هذه الممارسات في مجال التربية والتعليم، فمن المسؤول عن ذلك؟

وقال إن هناك قصوراً في الاطلاع على ما يكتب الغرب والمجتمعات الأخرى عن ثقافتنا ولغتنا العربية، ويتساءل عن غياب دور الجامعة ومراكز البحث ووزارة التربية والتعليم وغيرها من المؤسسات المتخصصة.

- أ. د. فاروق الكيلاني

رأى أنه يجب أن نسأل أنفسنا: ما المشكلة؟ ولماذا هي؟ وكيف يجب أن تعالج، ويطالب بوضع فلسفة واستراتيجيات عملية تطبيقية لمعالجة هذه المشكلة والنهوض بأمتنا التي فقدت الشيء الكثير من هويتها التي هي لغتها.

- د. إيمان الكيلاني

علّقت على عبارة أوردها الدكتور زياد الزعبي "أن المغلوب دائماً مأخوذ بثقافة الغالب وأن الذي يصنع التقنيات هو من يتحكم بصناعة اللغة"، بقولها: في

التاريخ تجارب تخالف ذلك؛ فالرومان هزموا اليونان عسكرياً ولم يستطيعوا هزيمتهم ثقافياً؛ فعاشوا على ما صنع اليونان وأبدعوا.

وكذلك الدولة العبرانية التي نشأت منذ زمن قريب وليست هي من يصنع التقانة والحضارة، ومع ذلك فكل ما يستجد من مستحضرات في الحياة "يعبرن"، أي أننا نجد لها مقابلاً عبرياً وفق مناهج علمية وواضحة.

- رد الدكتور زياد الزعبي

فيما يخص قضية عدم ترجمة ما يكتبه الغربيون عن العرب، رأى الدكتور زياد أن المسألة تتعلق بعدم معرفتنا بذواتنا في الجامعات، فمن يبتعثون إلى الغرب يرسلون لدراسة ظاهرة أو تحقيق مخطوط ولا يوجهون إلى دراسة ما فعله الآخرون عبر ستمئة سنة من الدراسات الأوروبية وهي دراسات أكبر مؤسسة في التاريخ لا تعود لمستشرقين فقط، وإنما لعلماء وأطباء وشعراء أوروبيين، فهناك مجموعة كبيرة من الشعراء الأوروبيين وقعوا تحت تأثير هائل للشعر العربي، وهناك آلاف الدراسات حول هذا الموضوع، وكلها غائبة مع الأسف؛ فالمؤسسات عندنا لا تملك رؤية واضحة حول ما يحدث وهذا ما يجعلنا ندور في حلقة مفرغة، وهذه واحدة مما نعانيه في بنية المؤسسات العلمية وليست السياسية فقط؛ لأن بعض السياسيين لا يدركون شيئاً عن المؤسسات والوزارات التي يعملون بها، ولكن الحديث هنا عن مؤسسات علمية لا تعي ما تفعل، فالخطط الدراسية التي وضعت في جامعة فؤاد الأول مثلاً ما زالت سارية المفعول حتى هذه اللحظة ولم يجرؤ أحد على تغييرها.

وفيما يخص مسألة تدريس لغة أجنبية إلى جانب العربية رأى الدكتور زياد أهمية تدريس لغة أخرى؛ فاللغات تقوم بعمليات إثراء متبادل ولا يعني هذا أن لغتنا الأم أصبحت على الهامش.

كما أشار إلى قضية من يصنع اللغة رداً على التساؤل المطروح آنفاً، فيقول: ما أشير إليه هو المنتج والمستهلك؛ فالحضارة الرومانية كانت حضارة عسكرية ولم تكن حضارة متفوقة، وبالتالي تبنت الإرث اليوناني كما هو. والعرب كذلك كانوا متفوقين عسكرياً ولم يكونوا منتجين، ولذلك تبنوا الفكر اليوناني، ولكن عندما أصبحت هذه الحضارة متمثلة تمثلاً عميقاً لهذا الإرث قدمت إنتاجها الخاص بها.